

الاحسان

للاستاذ احمد امين

لا أطيل على القارىء، فاني أريد بالاحسان التصديق على
الفقراء، ومعونة الضعفاء والمرضى، ولست أرى لفظاً أدل على
المعنى من الاحسان، وان لم ير ضه المتشددون في الالفاظ
ربما كانت فضيلة الاحسان من أكثر الفضائل تقبلاً مع
الزمان، وتغيراً في افهام الناس، فكم بين ما كان يفهمه حاتم
الطائي من نحر الجزور وانهاهاها الناس، وبين ما وضع من النظم
الحديثة للاحسان من فروق ومباينات !
نظام المعيشة من قديم ينتج غنيا مفراط الغنى، وقصيراً مفراط
الفقر، كما ينتج :

أعشى وأعشى ثم ذا بصر وزرقاء البهامه
قدور السعادة يضحكون وغيرهم يبكي ندامه
ولم يخلق للآن نظام يعدم هذه الفروق أو يقللها من غير
ان يستتبع خطراً أعظم، وداء أعزل .

فاهتدى الناس لتلطيف هذه الفروق الى المتأداة بالكرم
والفخر به، ولست أدري أكان أول من نادى به الاغنياء
اتقاء لخطر الفقراء، أم الفقراء تعطيافاً لقلوب الاغنياء .

وأنت الاديبان تدعوا الى الأخوة، وخاصة بين أهل
الدين الواحد، وتجعل من مستلزمات هذه الأخوة عطف الغنى
على الفقير وإشراكه في جزء من ماله، واستتبع ذلك وجود
الاديار في النصرانية والتكاي في الاسلام

وكما أتت النظم معونة للفقراء وسداً لحاجات المعوزين
أتت عند بعض الناس تراخياً في العمل، وميلاً الى الكسل
واتخاذ الاستجداء حرفة، والتكدي صناعة .

وكثرت جيوش الفقراء فلم تكف النزعات الدينية لسد
حاجاتهم، فتدخلت الحكومات تحمل بعض العبء فبنت

المستشفيات وأنشأت الملاجىء وما الى ذلك
وأنت المدنية الحديثة فأخذت تقوّم الفضائل من جديد،
واستخدمت العلم في هذا التفرع كما استخدمته في كل شيء،
وكان مما نظمت طرق الاحسان، بل جاء قوم من الفلاسفة
متأثرين بذهب النشوء والارتقاء . ونظرية الانتخاب الطبيعي
وعلى رأسهم « هربرت سبنسر » يطبقون هذا على الاحسان
ويرون أنه رذيلة لافضيلة، وأن العجزة ومن اليهم لا يستحقون
هذه العناية، إنما العناية يجب أن تنحى الى الأقوياء وإلى خير
العناصر، ويجب أن ينتخب من المجتمع تخيره وألقوا به، فتوجه
اليه العناية وتأخذ بيده، وبعد أجيال سيفنى الضعفاء ويبقى
الأقوياء فيسعد مجتمعهم . ففعل في ذلك ما تفعل بالزهور
والاشجار، نهمل الذابل والضعيف يقنى، ونستولد القوى
الجيد فيبقى الى آخر ما قالوا . ومن حين الحظ لم تلق نظريته
هو وأمثاله نجاحاً، فانها نظرية تقضى على خير ما في الانسان
من عاطفة ثيالة نحو الناس، وكيف يقضى على العجزة والفقراء .
ونظام الحياة يخلق منهم كل يوم خلقاً جديداً وجيشاً كبيراً
لأنه لم يُعنى به لا كتسخ الاغنياء، ولأن ثورة لا يعلم مداها
الا الله .

إنما كتب النجاح لقوم آخرين من الادباء والعلماء لم
يحاولوا أن يمنعوا الاحسان، ولكن حاولوا أن ينظموه، لم
يشكوا في قيمته، ولكنهم آمنوا بضرر قوضاه، واستعانوا بما
وصل اليه العلم كما استعانوا بمنهاج البحث الجديد، فدرسوا الفقر
وأسبابه وطرق الاحسان وما يتلاقى منه مع أسباب الفقر
وما لا يتلاقى، ووقفوا في ذلك الى حد كبير وان لم يصلوا الى
الغاية، وعلى ضوء هذه الدراسة سنت القوانين وأشتت النظم،
وظلت القوانين تنظم والنظم تعدل، حسب مقتضيات الاحوال
الى اليوم .

فن أشهر القوانين القانون الانجليزي للفقراء الذي وضع
سنة ١٦٠١ ونقح سنة ١٨٣٤ والتزم فيه الحكومة بمساعدة
الفقراء والعاطلين .

فيه هذا النظر ، ولا يعد فضيلة حتى يكون القرش الذى يعطى يقصد به رفع مستوى الأمة ، فإذا كان الاحسان يزيد حال الأمة سوءا ، عد رذيلة لا فضيلة ، وعدم أنى به مجرما لا محسنا ، وبعبارة أخرى أن هذا النظر الحديث يتطلب أن يشعر المحسن بالتبعة أو المسئولية ، فمسئولية المحسن أن يعطى الفقراء ، وأن يتسامح عن إعطائه هل أفاد من أحسن إليه ؟ وهل أفاد الأمة بعمله أو لم يفد ؟

كان لهذا النظر نتيجة لها قيمتها - منها تحريم الاحسان الفردى ، وهو أن تكون علاقة المحسن بالفقير علاقة مباشرة ، وإنما يجب أن تتوسط فى ذلك الجمعيات والهيئات التى عرفت حالة الفقراء ودرست شؤونهم ، واهتدت عن طريق دراستها الى نوع ما يصلح لهم ، فمن شاء الاحسان فعليه ان يتبرع لهذه الجمعيات وهى التى تتولى الاتفاق - ومنها تحريم التسول فى الشوارع والطرق ، لأن التسول لم يثبت للجمعيات صحة دعواه وعلة فقره . ان كان وليس التسول حرفة مشروعة ، ولكن اذا أثبت عدم صلاحيته للعمل وعجزه عن العيش وجب على الأمة اعاقته ، والجمعيات أقدر على تعرف هذا - وكان من مقتضى هذا النظر أيضا أن الهيئات التى وكل اليها هذا الأمر لا يصح ان تكتفى بأعطاء المال الى الفقراء ، بل يجب ان تعالج الأمر بشتى الوسائل حسب حالة كل فقير . فمن كان سبب فقره ان لا عمل له مع قدرته سعت له فى إيجاد عمل ، ومن كان سبب فقره مرضه عاجلته ، ومن كان سبب فقره إدمان مخدرات أو سوء عادات نظرت فى وسائل اصلاحه ، كذلك اهم عمل عمله أن ترعى أبناء الفقراء حتى لا يكونوا فقراء المستقبل ، فتشبه لهم المدارس لا ليتعلموا فيها تعلما نظريا لا يسمن ولا يغنى عن جوع ، ولكن تعلما صناعيا يبعث فيهم روح الاعتماد على النفس ، ويفتح لهم السبل لتحصيل العيش - بهذا وأمثاله خرج الفقراء فى اوربا وأمريكا ، فان كان بعد ذلك عاطلون لم يكن سبب عطلهم راجعا اليهم ، وإنما يعود الى نظام العمل والعمال وسوء الحالة العامة ، وجب ان تضمن الحكومات لهم ما يقيم أودهم حتى يعودوا الى عملهم .

ومن أشهر النظم المعروفة نظام « همبرج » الذى وضع للفقراء والعاطلين ، وهو يتلخص فى تأسيس مكتب رئيسى فى المدينة للنظر فى شؤون الفقراء وتنظيم الاحسان وتقسيم المدينة الى أقسام ، وتعيين مشرف على الفقراء فى كل قسم وظيفته اعانة العاطلين على وجود عمل لهم ، ودراسة أسباب الفقر فى الاسر ووصف العلاج لها ، وانشاء مدارس صناعية لاولاد الفقراء ومستشفيات لمرضاهم ، ويقتضى بمنع الاحسان يدا بيد الى الفقراء ، انما يعطى الاحسان لهذه الجمعية ، فهى أدرى بطرق انفاقه - وكان من أثر هذا النظام قلة عدد الفقراء وتنظيم معيشتهم ، وقد أدخلت عليه تعديلات قليلة ثم عمم فى مدن كثيرة فى أوربا .

ونشأت فى أمريكا جمعيات على هذا النظام وسعت بعض أغراضها - من ذلك أنها رأت أن أكبر مساعدة ليس إعطاء المال للفقراء ولكن إيجاد العمل لهم ، كما جعلت من أهم أغراضها زقية المعيشة الاجتماعية فى منازل الفقراء والعناية بمحالتهم الصحية ، وتعوديهم العادات الصالحة للعيش ، ووجهت أكبر همها الى العناية بأطفال الفقراء حتى لا ينشأوا كآبائهم ، فكان لدى الجمعيات سجل للفقراء والعاطلين فى كل حي ، ومجمل عن سبب فقر كل اسرة وحالتها وما بذل من العناية لها ، والاتجاه الذى اتجهوا فى معالجتها ، وبذلك أسس الاحسان على الاسس العلمية

لعل أهم ما حدث من الانقلاب فى تصور الاحسان انه كان يكفى فى عده فضيلة أن يخرج الانسان عن شئ من ماله أو جهده ابتغاء ثواب الله ، لا يبالى بعد ذلك أين وقع ماله : أعلى غنى وقع أم على فقير ، أكان فيه اصلاح للفقير أم افساد له ؟ فيكفى أن يجود بقرش ليحسب له عند الله عشرة . أو مائة ، فجاءت الدعوة الحديثة تطلب أن ينظر فى الاحسان الى المحسن اليه لا الى المحسن ، فليس من العمل الصالح فى شئ أن تعطى حسبما اتفق ، بل يجب أن يكون عطاؤك لا صلاح الهيئة الاجتماعية التى أنت فيها ، ولا يكون ثرابا عند الله الا اذا نظر

الخير التي يراها هو اذا رأينا أنها ضارة أو رأينا أن الامة أحوج الى الصرف في وجوه أخرى — رحم الله حسن باشا عاصم، فقد كان له موقف في ذلك من أبداع المواقف — تبرع حسن ببناء مدرسة، ووقف عليها الاوقاف التي تلمزها، وأتبعها للجمعية الخيرية الاسلامية، وكان حسن عاصم مديراً للدارس ثم أراد الواقف أن يدخل ابنته في المدرسة، وكانت سنة تزيد على السن المقررة شهوراً، فأبى عليه ذلك وقال انه تبرع بمدرسة فله الشكر، ووقف عليها أوقافاً فله من الله الاجر، ولكنه يريد أن يبطل قوانيننا فليس له في ذلك حق .

قد يكون من المعقول أن نقبل ارادة الواقف في أوقافه الاهلية . أما الخيرية فيجب أن تخضع كل الخشوع لمصلحة الامة . لا أعلن الواقفين اذا بعثوا من تبرعهم ورأوا تطورات الامم الا مؤيدينا في رأينا وراجعين عن رأيهم . والامر الثاني وهو متصل بالاول ، ان اموال الخير تصرف حسبما اتفق لا خضوعاً لدراسة اجتماعية ولا تحرياً لوجه الاتفاق ولا للسبق عليهم ، فكثيراً ما يحرم البائس المحتاج ويعطى الغني المبذر ، وكثيراً ما يحرم العائل لا يجد قوته وعياله ، ويعطى المذموم بنفقها في كيوفه

ان فوضى الاحسان في الشرق سبب من اسباب شقائه، ولونظمت لكائنات من أكبر العوامل في نهوضه وصلاحه لأمل في هذا الاصلاح حتى ينشط رجال الامة وشبانها للخدمة العامة، وان تثلثوا عقيدة بضرورة المساهمة في الاحسان بالمال وبالنشاط، وأن يطالبوا بمطالبة حارة بتنظيم الاحسان حتى يؤدي غرضه على أكمل وجه مستطاع ، ان رأينا البؤس في الامة يتضائل الى حد كبير ، ويحل محله كثير من الرخاء، ولرأينا المال — الذي يضيع في الشرق سدى — وقد أصبح دعامة للاصلاح ، وسبباً من أكبر أسباب النهضة الحديثة .

احمد أمين

ونحن اذا نظرنا — في ضوء هذه النظريات وكيف طبقت — الى حالة الشرق وجدنا عجباً ، وجدناه لا يزال على حاله الاولية ، سواء في ذلك أغراض المحسنين أو تطابق الاحسان .

لدى الشرق أموال كثيرة تبرع بها أهلها للخير ، لدينا — أموال الاوقاف الخيرية ، ولدينا أموال النذور ، ولدينا تبرعات المحسنين ، الى كثير من أمثال ذلك ، ولكن أكثرها لا يقع موقفاً حسناً عند الله وعند الامة ، وكأنه يصب في البحر حباً أو يدفن في الارض دنياً ، على أن المال الذي يدفن أو يلقي في البحر ليس له من الضرر أكثر من فقدته ، ولكن ضرر الاتفاق على غير مستحق يزيد الامم بلاء والحال سوءاً

وأهم ما استوجب هذه الحالة الاسيفة في نظري شيان — أولهما — احترام ارادة الواقف والتبرع . فالقهاء يرون أن شرط الواقف كنص الشارع ، والواقف لا يعلم تطور الامة ولا مطالبها ولا حاجاتها التي تختلف باختلاف الزمان — قد كان كثير من الواقفين لا يفهمون من وجوه البر الا الوقف على الحرمين والمساجد والتكايا والتصدق بالخبز على المقابر ، فأصبح الناس اليوم يفهمون أن من وجوه البر كذلك انشاء المستشفيات والمدارس والملاجئ ، وسيفهمون قريباً أن من وجوه البر اعانة جمعيات التأليف واعانة الفلاحين ليحصلوا على الماء النقي ، وليستضيئوا بالنور الكهربائي ، وسيجد غير ذلك من ضروب الخير ، وسيرون أن الوقف على مسجد اذا كان المسجد قد وقف عليه من قبل ما يكفيه ليس وجهاً من وجوه الخير ، وسيرون ان أموال النذور تلقى في صناديق الاضرحه ليست تتفق على الموزين والمحتاجين ، فليس التبرع بها احساناً

كان الواجب من عهد بعيد أن تحترم ارادة الواقف والمتبرع في رغبته في الخير فقط ، ولكننا لا نحترمها في وجوه